العدد(1542) السنة السادسة -الاربعاء (24) حزيران 2009 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

عند أسوار فيينا

هابسبورك.. العثمانيون ومعركة من اجل أوروبا

الكتاب: العدو عند الأسوار
تأليف: أندرو ويتكروفت
ترجمة : ابتسام عبد الله

في العام ١٦٨٣، كان قره مصطفى، الوزير الأكبر للعثمانيين ما يزل احد الباشوات من الذين نشأوا في عائلة كوبرولو الشهيرة التي ستزول عدداً من الباشوات العظام . وان كان اغلبهم من ذوي الخط السيئ – للبلاط العثماني.

وحسبما وصف من قبل معاصريه بـ (الفاسد والقاسي والظالم) نشأ قره مصطفى ليصبح أمير البحر للأسطول الايجي المروع، ولكنه نجح أيضا في قيادة القصر ذي التيارات المتضاربة ، في عام ١٦٧٥ ومنحه يد ابنته لزواج.

وصعود قره مصطفى المتواصل لم يكبح طموحه الشرس، وبالنسبة اليه كانت الجائزة العظمى تقع في الغرب.

وقبل قرن من الزمن، في عام ١٥٢٩، كان سليمان العظيم قد حاصر فيينا ولكن مصاعب الشتاء ارغمته على التخلي عن هدفه. النجاح فيما اخفق سليمان كان يشكل ذروة المجد الإمبراطوري.

وكما يذكر ويتكروفت في "العدو عند الأسوار" فان الصراع الدامي الذي نشب بين هابسبورك والعثمانيين وأساطيلهما على الجهتين لم يمثل الكثير شيئا بارزا من" صراع الحضارات".

وعلى الرغم من الشعارات المتبجحة التي رافقت ذلك الصراع فان الأمر لم يكن الا بين الإسلام والمسيحية.

كانت الأرض هي الهدف ولكن أيضاً تراث الإمبراطورية الرومانية، وكان من المسلم به في اعتقاد ليوبولد الأول، الإمبراطور الروماني المقدس، ان شرعية الحكم تعود مباشرة الى ان هابسبورك، ولكن السلطان العثماني محمد الرابع امن بنفس القوة ان لقب قياصرة الرومان من نصيبه الم يكن محمد الفاتح (احد الفلاسفة) قد انتصر على البيزنطينيين وفتح القسطنطينية قبل قرنين! وبسبب ذلك الإيمان، فان العثمانيين تقدموا نحو هدفهم وكانت فيينا، عاصمة الإمبراطورة الهابسبوركية، هي الجائزة النهائية.

كان قره مصطفى واحداً من الشخصيات المعقدة الشجاعة الكثيرة، اما ليوبولد الأول فكان مزيجاً من صفات سيئة، في حين وصف محمد الرابع مولعاً بالقراءة ميالاً الى المعرفة الكتبية وليست العملية، وعندما قرر الغزو قاد جيشه حتى بلغراد، قبل ان ينقل القيادة الى قره مصطفى، وهكذا غدا الأمير ايوجين رسافوي، اكبر الجنرالات سناً وقد أظهر شجاعة وجرأة والفارس الأكثر حيوية في جبهات المعارك، ودوق لورين قد اشتهر بعبارته المأثورة: "من لا يخشى عدواً، لا يعرف معنى الحرب".

ويتحدث كتاب اندرو ويتكروفت عن المعارك التي دارت بين الطرفين بأسلوب مثير ومدهش.وقد القى العثمانيون الذعر في قلوب عدوهم، وقد كان النمساويون خائفين أصلاً وأيضاً أكثر قسوة من أعدائهم ولم يكتفوا بقتلهم، بل ذبحهم وبتر أطرافهم.

وبسبب ان المؤلف لم يعتمد على مصادر تركية في بحثه ، فان شرحه لم يوف العثمانيين حقهم.

وفي النهاية ، وبعد هزيمة قره مصطفى أمام أسوار فيينا، تراجع الى بلغراد، وهناك وفي يوم عيد الميلاد عام ١٦٨٣، القى التحية على جلادي السلطان، راكعاً بهدوء عثماني وبلطف رفع لحيته ليكشف عن رقبته. الحكاية هذه تبدو أسطورية، ويتحدث عنها المؤلف بشكل حسن وبأسلوب مؤثر.

عن / التايمز

الصيف الدامي

انتفاضة الفلاحين عام ١٣٨١

اسم الكتاب: صيف الدم
ثورة الفلاحين عام ١٣٨١
مراجعـــة: جون غاي
ترجمة: عبد علي سلمان

في صيف عام ١٣٨١ اندلعت ثورة الفلاحين في شرق انكلترا قبل ان تمتد بعيدا شمالا وغربا وصولا الى يورك وسومرسيت، وسببها الرئيس زيادة ضريبة الرأس وهي ضريبة فُرضت لتمويل الحرب على فرنسا وجاءت في اعقاب التهجير الواسع وقوانين العمل الجائرة بعد الموت الاسود(موجة طاعون بدأت في ايطاليا عام ١٣٤٨ وانتشرت في اوربا عام ١٣٥٠ وقتلت في بعض المدن ثلثي السكان - المترجم)، وقد نُظم التمرد بضبط يقارب الضبط العسكري.

والمشاهد الدموية احتلت مكانا اثناء احتفالية جسد المسيح (احتفالية تُعنى باستذكار العشاء الأخير) في منتصف حزيران، وذلك حينما انضم الاف الريفيين الى دهماء المدن، وكانت لديهم قائمة اغتيالات بأسماء الأشخاص الذين يريدون تصفيتهم، ومن الطبيعي عندما يكون المحتجون من الطبقات السفلى ان يكون لديهم بيان سياسي يهدف الى تخليص حكومة الملك المراهق ريشارد الثاني من الفساد، وبعد فشلهم في إسماع الملك لمطاليبهم سلمياً، تمكن الثوار من جعل النظام يجثو على ركبتيه ليومين مرعبين.

ويسعى المؤلف دان جونز إلى الكشف عن الوحشية والمثالية في هذا الصيف المصيري، في اليوم الأول فُتحت كل السجون، وحوّل المتمردون قصر جون جاونت الرائع المسمى سافوي والواقع على الشاطئ الى ركام محترق.

وفي اليوم الثاني اقتحم الثائرون (تور اوف لندن) وجروا سيمون ساديبري كبير الأساقفة وآخرين وأعدموهم، وكان هناك ضحايا اقل منزلة من ضمنهم المحامين والتجار الفلانديرين (نسبة الى الفلاندر وهي منطقة مُقسمة بين بلجيكا وفرنسا وهولندا. المترجم)، وتم أفراد المحامين لان الثوار كانوا مؤمنين انهم كانوا يستخدمون الحيل القانونية لتمكين اصحاب الأرض من استعبادهم وتم تسوية بيوتهم بالأرض واصبحت مستودعات وثائقهم وقودا للمشاعل، وأقيمت سقالة مؤقتة في منطقة جيب ساييد (الحي الفقير)، وسُمِحَ لكل من له مظلمة باستخدام فأس الجلاد.

وانهارت الثورة الرئيسة بعد مواجهة دراماتيكية بين ملهم الثورة وقائدها الشجاع ووت تايلور وبين الملك ذي الأربعة عشر عاما وذلك عندما قام الملك وعلى مرأى من قوات الثوار المحتشدة والنبلاء المتذبذبين من طرحه أرضاً وعندها طعنه عمدة لندن في عنقه، وقد قدم المؤلف صورة واضحة عن تايلور ولكن تصويره لجون بول واعظ التمرد المهيب كانت بائسة وهو الذي أصبح احد نصوصه الذي وعظ به المتمردين قبل يوم من قيام الثورة مثلاً.. "عندما حفر آدم وغزلت حواء/ من كان وقتها السيد"، اما القائد الغامض الثالث للمتمردين جاك سترو الذي قصد بيوتا للثائرين تقع في مقالع الحجارة في ضواحي لندن فقد ظل مجرد عنوانا للصفحة، ويقترح مؤرخ معاصر ان جاك سترو لم يكن الا تايلو نفسه بهوية مزيفة، لكن جونز يعتبر ان مثل هذا الرأي مثير للاهتمام.

وهناك الكثير من الأسئلة لم يطرحها جونز مثل: كيف تمكن قادة الثورة من التواصل فيما بينهم على بعد المسافات بهذه الصورة الفعالة؟ ولماذا انضم الكثير من القرويين الأغنياء ، ومنهم موظفين في قصور ملاك الأرض الى الحرفيين والعمال الذين لا يملكون أرضاً؟ والامر المخيب للآمال بصورة كبيرة هو عدم ذكر الثائرات النسوة، فكلا الجنسين التحق بالانتفاضة.

ويذكر جونز امرأة واحدة كانت تزيح الرماد من المشاعل في كامبرج وهي تصيح "ألا بُعْداً لتعاليم رجال الدين"، وقد وردت أسماء العشرات من النسوة من كينت وسافولك في سجلات المحاكمة ضمن المتهمين باحداث العنف، ومن ضمنهن ثلاث مسؤولات عن احراق قصر سافوي، وواحدة أخرى بوصفها "قائد رئيسي" في قتل الاسقف ساديبري.

وجونز يصف عواقب الثورة بصورة أفضل من وصفه لأسبابها، وبياناته عن ضريبة الرأس مبسطة جدا: فالنهرب من الدفع لم يكن منتشرا في عام ١٣٨١ كما قال، وقد فشلت الجباية لأن الفقراء معفيون قانونياً، ونقطة اشتعال الغضب كانت وصول قوة ملكية للجباية بالاكراه الى الريف، والتي كانت تعمل تطبيقا لعقوبات قوانين العمل.

ويقال ان واحدا قال في ازكس انه يجب رفع تنورات النساء لمعرفة ان كن عذراوات، وهذا ما اعتبره المؤلف ذا قيمة حقيقية من دون ان يوضح ذلك، ولكن لأن كل بالغ سواء أكان متزوجا ام لا يتوجب عليه دفع الضريبة قانونياً، فلا تهم العذرية هنا، ولعل المرجع يشير الى حدوث الطمث (الدورة الشهرية) بوصفه الدليل على البلوغ عند الانثى، ومن المحتمل ان يكون كذلك التعبير المجازي عن الاستمتاع الجنسي عبر النظر الذي يستخدمه المؤرخون بدلا من كلمة الطمع بالنساء.

ويكشف المؤلف باختصار بليغ التأثيرات الواسعة للانتفاضة، فهي وان فشلت في اصلاح قوانين العمل لكن لم تقدم بعدها اية افكار لتحصيل ضريبة الرأس لمدة تزيد على ستمئة عام (أعادت السيدة مارغريت تاتشر العمل بها - المترجم)، وعلى الجانب الثاني فان الثورة اشرت اللحظة التي تغير فيها ريشارد الثاني من الطفل الغر الى حقود متنمر، وكان على الدوام خائفا من الصدام مع الدهماء.وبعد عام ١٣٨١ اخذ يرتاب بكل شيء وخصوصا النبلاء الذين حسب ظنه خذلوه، وفي صراعه مع البرلمان سعى الى ان لا يخضع هو ومن يحابوه لأي تدقيق ولقد تملكه الولوع بالطغيان مما عرضه للتمرد المسلح من قبل النبلاء أدى الى الإطاحة به من قبل هنري اوف بولينبروك في عام ١٣٩٩.

دويل وهولمز..

وجـــهـــان مـتـنـاقـضـــان لـشـــخـصٍ واحـــد!

> من الغريب أن نشعر بهذا القدر الكبير من المواساة من شرلوك هولمز، كما جاء في عرض الكاتبة دينا بيرتش، بموجب العنف الضاري الذي تتّسم به مغامرات هذه الشخصية البوليسية الشهيرة، فليس فقط الذين يعبرون طريقه يُصابون بالطلقات روتينياً، أو يُضرَبون بالهراوات، أو يُطعنون بالمدىّ، بل ويجازفون بالتعرض للموت جوعا، أو الدفن أحياء، أو لهجوم كلاب ضخمة مسعورة، أو يقتلون تحت حوافر الخيل، أو يموتون بطرق فظيعة أخرى، وقد يُفقدون إبهاماً، أو أذناً، وفي مناسبات عرَضية يفقدون عقولهم أيضاً،

الكتاب / كونان دويل: الذي خلق شرلوك هولز
تأليف: أندروليسيت
ترجمة: عادل العامل

مع هذا، فإن هولمز هو الأكثر مواساةً أو عزاءً من بين جميع الأيقونات الأدبية، إنه لا يستطيع على الدوام أن يمنع وقوع جريمة أو يعاقب المجرم ، لكنه لا يفشل أبداً في تفسير ما حدث، وكيف، ولماذا؟ ويُحب زميله واتسون العادي أن يزعم أن بطله معصوم من الخطأ لأنه يزدري الأمتعة العاطفية التي تُربك أحكام الرجال الأقل شأناً، وهذه القصص، في الحقيقة، مشدودة بالإحساس، إذ أن كره هولمز لارتكاب الخطأ عبارة عن هوىً لديه وليس التزاماً عقلياً.

وهذا الرنين الشخصي تعززه الرابطة القائمة ما بين شرطي التحري وكاتب سيرة حياته.

ففي (مغامرة بروس - بارتنغتون)، يسرق واتسون نفسه ليرافق هولمز بشأن مشروع خطير بوجه خاص: " لقد عرفتُ أنك لن تتكمّش في الآخر، وللحظة رأيت شيئاً ما في عينيه كان أقربُ إلى اللطف مما كنت قد رأيتُ على الإطلاق".

وحين يُصاب واتسون برصاصة في (مغامرة المقامرين الثلاثة) يُظهر هولمز أساه لذلك: "كان الأمر يستحق جرحاً ـ كان يستحق جراحاً كثيرة ـ أن تعرف عمق الإخلاص والحب اللذين يكمنان وراء ذلك القناع البارد، كانت العينان القاسيتان، الصافيتان معتمتين للحظة، والشفتان الحازمتان ترتعشان، وللمرة الواحدة والوحيدة التقطتُ لمحة من قلب عظيم ودماغ عظيم أيضاً، وتُوّجت كل سنُوات خدمتي المتواضعة والوحيدة الرأي في تلك اللحظة من البوح".

وهذه حكايات متأخرة، فمثل هذه اللمحات من العاطفة ليست من مميزات الظهور الأول لشرلوك هولمز، لكن العلاقة الأسبق بين الرجلين، هولمز وواتسون، في مسكنهما المشترك في بيكر ستريت تشبه زواجاً ثابتاً بين شريكين على اختلاف واسع، ويعتمد النجاح الاستثنائي للقصص على حوار مستمر بين ضدّين. فالعقل المضطرب على اختلاف مع الاصطلاحية المتبلّدة. وتفصيلات الحياة اليومية العادية، بواجباتها المنتظمة، وجداول مواعيد القطارات، والصحف، والتبغ والنيران المتوهجة، توضع جنباً إلى جنب مع تذوق هولمز للكوكائين، والموسيقى السوداوية الكئيبة، وإثارة مطارداته التحقيقية الغريبة.

أما اللغة، فهي بسيطة بقدر ما تتّسم به المطاردات من غرابة، وهذان القسمان، حيث تقطع الغرابة المخفية العادات الاعتيادية، يعكسان حياة أرثر كونان دويل.

وينطوي كتاب سيرة الحياة الذي ألّفه أندروليسيت على الكثير مما يمكن قوله عن التصدعات التي تشق وجود دويل المحافظ ظاهرياً من الأعلى إلى الأسفل. فقد حوَّم عدم الاستقرار على طفولته. ومع إنه أصبح لاحقاً أكثر الرجال الانكليز وطنيةً، فقد نشأ في أدنبرة، وكانت الأسرة آيرلندية الأصل. وكانت من الكاثوليك التقاة، وكان عمه ريتشارد دويل (ديكي)، هو أشهر أعضاء الطائفة، رساماً مشهوراً بالرسوم التخطيطية والمتحركة، وجده جون رساماً كاريكاتيرياً سياسياً بارزاً. وكان أبوه، تشارلس دويل، فناناً موهوباً أيضاً، لكنه افتقر إلى الثقة بالنفس التي لدى الأسرة. وكانت زوجة تشارلس الأيرلندية، ماري فولي، أكثر منه قدرةً وقوةً. وعندما أصبح تشارلس سكيراً مضطرب الذهن، وصار من الواجب حجزه في المؤسسات، فإن تماسك ماري، إلى جنب الدعم العملي من أسرة دويل، هو الذي أوقف تدهور الأمور. وكان التعليم المضبوط الذي حصل عليه آرثر في ستونيهَرست، المدرسة الداخلية الكاثوليكية الرومانية، وتدربه الطبي في أدنبرة، سيكونان أمراً مستحيلاً لولا دعم الأسرة. وكان يعرف ما كان مديناً به لهم، غير إنه كان يعرف كذلك الشيء المتوقّع بدوره، فسكنته الحاجة إلى تحقيق النجاح، وتكوين المال وإعادة ترسيخ جدارة الأسرة بالاحترام، وكان حب أمه الشديد أساسياً بالنسبة لاحترام الذات لديه والإحساس بالهدف، كما فرض أعباءً معطّلة حاول أرثر التخلص منها على نحو مثابر.

لقد كان الولع بالقصة الغرامية romance والفنتازيا أو الخيال أحد أعراض هذه النزعة، لكنه يأخذ في الغالب أشكالاً أكثر مجازفةً، ولم يفقد دويل ميله الصبياني للمخاطرة أبداً، فقد تعرَّض تقريباً لإطلاق النار باعتباره متطفلاً حين وجد نفسه ذات مرة لا يستطيع الدخول إلى بيت كان يقيم فيه، فتسلّق أنبوبَ تصريف الماء. وفي مناسبة أخرى، وكان على ظهر سفينة لصيد الحيتان في الدائرة القطبية الشمالية، أوشك تكراراً على الوقوع في بحرٍ متجمد وهو يطارد الفقمات، وكان الكابتن يدعوه بـ(الغوّاص الشمالي)، وقد أصبح من رواد التزحلق، وكان ينتهز الفرصة بتلهف ويجرب بالوناً بالهواء الحار، ويمتلك دراجات نارية وسيارات فور وصولها إلى الأسواق (يروح يسوقها بأسرع ما يستطيع، وينتهي الأمر أحياناً بعواقب مؤسفة)، وكان عضواً مؤسساً لفريق نادي بورتسموث لكرة قدم، كما كان يلعب الكريكيت جيداً، وهناك مغامرات أخطر، فقد تطوع للمساعدة مع مستشفى ميداني في حرب البوير، وعمل من دون كلل لمكافحة مرض التيفوئيد الذي كان يقتل من الجنود أكثر مما تفعل المعركة، وجعل من نفسه فيما بعد مراقباً ومؤرخاً للعمل العسكري في الحرب العالمية الأولى. وكانت هذه النشاطات جزئياً من وحي اعتقاد دويل بأن الصراع المتّصل يمكن أن يُبقي الرجل الشحاع ذا قلب طيب، لكن ملاحقته الاستحواذية للخطر تؤشر أيضاً إلى ممانعة لديه لتقبل مسؤوليات النضج الجائرة.

ومع أنه لم يشارك في الهوَس المعاصر بالطفولة، فقد شاطر الآخرين الكثير من حوافزه، والرسم البياني إلى روايته الجريئة (العالم المفقود)، التي تصف مغامرات البروفيسور تشالنجر المفعمة بالحيوية في سهل مرتفع يعج بالديناصورات قربَ الأمازون، يدل على ذلك: لقد وضعتُ خطتي البسيطة.

إذا ما قدمتُ ساعة فرح
للولد الذي هو نصف رجل،
أو الرجل الذي هو نصف ولد

لقد سمحت الكتابة لدويل أن يعبّر عن جانبَي طبيعته معاً. ولم تكن هي طموحه الأول، إذ كانت خطة الأسرة أن يتخذ طريقه ليكون طبيباً، وقد كدحَ لسنين في مهنة غير مناسبة له أبداً، وكان يمارس في ساوثسي، فينتصب جالساً في بعض الأحيان في ساعة متأخرة من الليل وبذلك يمكنه أن ينسل خارجاً ليلمّع لوحة اسمه من دون أن يلحظه أحد، مَن سيثق بصاحب مهنة على درجة من الفقر بحيث لا يمكنه استخدام خادم لديه؟ وبينما كان دويل وحيداً كئيباً، التحق به أخوه الأصغر الشديد البأس إينيس، وقاما معاً بتأسيس أسرة رجال غير متشددة التقاليد كانت إحدى بذور المنزل في بيكَر ستريت، وبدأت هناك معيشة ملائمة بالتشكل، لكن كان واضحاً أن دويل لم يكن يمتلك مكونات طبيب بارز.

مع هذا لم تذهب مساعيه سدى، فحين أجهد نفسه لاكتشاف العلل المضبوطة والعلاجات الشفية، خطرت له صورة شرلوك هولمز، ووفرت له قلة المرضى الوقت ليكتب، وراح يمطر الصحف، أحياناً بنجاح، بوفرة من العمل المتمهن الذي شحذ مهارات القص لديه. وأصبح الأدب أكثر كسباً من الطب، على الصعيد الشخصي ثم المالي، وهكذا نشأ دويل الطبيب، وهولمز شرطي التحري، معاً. وكان لديهما الكثير من الأمور المشتركة، إذ كانت الملاحظة الشديدة السلاح المفضّل لدى الرجلين. وأحد نماذج دويل الأولية لهذه الشخصية كان أستاذه القديم في أدنبرة، الدكتور جوزيف بيل، التحليلي والخالي من التزويقات، لكن هولمز كان مصاغاً في الأول على شخصية دويل نفسه، بتدفقات طاقته الذهنية والبدنية المشوبة بنوبات من الاكتئاب التي تحط أحياناً من شرطي التحرّي العظيم.

"لكن أليست الحياة كلها شجيةً وتافهة؟ فنحن نصل.. وننال، وماذا يتبقى في أيدينا في النهاية؟ ظل، أو أسوأ من الظل - تعاسة"، لقد كان هولمز انعكاساً لدويل، وكان كذلك نقيضاً له - ناسك، واثق على الدوام من النصر، ومنيع على الغواية الجنسية، بينما كان دويل يخاف من الهزيمة، ويحتاج إلى صحبة وكان حساساً للغاية تجاه النساء الجذّابات، وكل قارئ يود لو كانت لديه قدرات هولمز، لكن معظمنا، مثل دويل، أقرب كثيراً إلى شخصية واتسون، "الحقائق حقائق، واتسون، وبعد كل شيء، أنت فقط رجل مهنة عامة بخبرة محدودة جداً ومؤهلات دون المتوسط"، كان ذلك تقييماً عادلاً لوضع دويل كطبيب شاب.

لقد أنقذ شرلوك هولمز دويل، لكن ذلك لم يحدث بين عشية وضحاها، فالظهور الأول للشرطي السري لم يجتذب إلا القليل من الانتباه، ولم يهتم الناشرون والقراء اهتماماً جدياً بشروك هولمز إلا بعد أن بدأ دويل يكوّن اسماً له في الأدب القصصي الأساسي.

وقد جاء التطور المهم الحقيقي مع (مايكاه كلارك) ١٨٨٩، وهي رواية تاريخية قوية تصف أحداث تمرد مونماوث. فكفاح دويل الطويل من أجل أن يجد ناشراً لعمله هذا يُظهره في أحسن أحواله ـ صامداً، لكن ليس مقتنعاً كثيراً بمواهبه الخاصة إلى حدٍّ أنه سيشعر بالاهانة إن تكرر الرفض، أويأبى تقبل نصيحة بشأن الكيفية التي يمكن بها تحسين عمله المرفوض، وقد حظيت الرواية باستقبال طيب، وتبعتها على الفور (الشركة البيضاء) ١٨٩١، وأنقذ هذان الكتابان السمعة التي فتحت الطريق لبروز هولمز، لكن ما كان يميز عدم ثقة دويل في نفسه أن ذلك كان يظهر في نوبة مرض منذرة، حين بدت حياته مهدَّدة، بتحريره من روابط أسبق: "لأسبوع من الزمن وأنا في خطر عظيم، ثم وجدتُ نفسي ضعيفاً وعاطفياً مثل الطفل ، لكن بعقل صاف صفاء البلّور.. وعزمتُ باندفاعة ابتهاج غامرة على قطع حبل المركب والثقة إلى الأبد بقدرتي على الكتابة.. لقد كانت تلك واحدة من لحظات السرور العظيمة في حياتي".

وسرعان ما أصبحت قصص التحري في The Strand Magazine حدثاً أدبياً مثيراً، وكما لو كان تحوّلاً بخفة إلى فخٍّ آخر أيضاً، فدويل، وقد تخلى عن أمان عيادته لعمل هولمز القصصي، وجدها سريعاً مثيرة للخوف من الأماكن المغلقة مثل تلك التي كان قد تركها وراءه في ساوثسي Southsea فانتقل مع زوجته اللطيفة توْوي إلى لندن، وبدأ يعيش كسيّد مزدهر الحال، وكان هناك أطفال عليه توفير المعيشة لهم، وأسرة يحافظ عليها، وكان من الصعب مقاومة المطالبة الصاخبة بالمزيد من مغامرات شرلوك هولمز، إذ لم يكن هناك من شيء آخر يحقق مكسباً جيداً، غير إن دويل شعر بأن تكرار الصيغة قد أصبح مسؤولية حرَفية.

وراح يأمل منذ وقت مبكر، كعام ١٨٩٢، في أن يخلّصه أحد منه تماماً: "إنني في منتصف قصة هولمز الأخيرة، بعدها يختفي الرجل، ولن يظهر أبداً.. إنني متعبٌ من اسمه"، وهكذا أسكت التصارع اليائس على حافة شلالات ريخنباخ رجل التحري اللامع لفترة من الوقت، لكنه فشل في القضاء عليه تماماً. فقد بُعث حياً في رواية (كلب باسكرفيلز) ١٩٠١ ـ ١٩٠٢، وظل يلاحق دويل لسنوات عدة قادمة، وكان هناك آخرون، إضافة إليه، قد أصبحوا يعتمدون على الثروة التي كوّنها في بيكَر ستريت، ومع إن دويل أنتج سيلاً ثابتاً من المغامرات والأعمال الأدبية الشعبية، فإنه لم يستطع أن يكرر حجم انتصاره مع هولمز، كما وجد دويل نفسه، وقد طوّقته الشهرة، سجيناً في حياته المنزلية. وكانت توووي الوفية، التي لم تكن قد اهتزّت أبداً خلال السنوات المبكرة القلقة، قد أضعفها مرض السل وأصبحت عاجزةً لا تشكو ووقع دويل في حب امرأة أخرى - جين ليكي، وهي مغنية جميلة بارعة، وتحولت العلاقة إلى حالة من الكدَر المتلكّئ، إذ لم يكن بوسع دويل أن يقرر ولا أن يترك الأمر، فقد بدا في الأول أن توووي ستموت بسرعة مناسبة، لكنها راحت تذبل في تراجع طويل. واستمر دويل في رؤية جين، ولو أنهما لم يكونا في ما يبدو قد أصبحا عاشقين. وقد انتظر الاثنان، تعذّبهما حاجتهما الآثمة إلى فرج لا يمكن إلا لموت توووي أن يوفّره. وقد تفهّمت أسرة دويل الوضع، بعد شيء من الممانعة والتهويش، لكن كان من الواجب إبقاء العلاقة خافية على زوجته العليلة، وجعلت الخديعة من الصعب على دويل أن يرى في نفسه سيداً إنكليزياً شريفاً، ولم يكن باستطاعة أي نموذج آخر من الرجولة أن يستحق احترامه. واستمر المأزق بطيئاً مدةَ عشر سنوات، حتى استسلمت توووي أخيراً في عام ١٩٠٦ لمرضها، ممكّنة بذلك دويل من الزواج من جين في السنة التالية، والكثير من نشاطه المحموم في هذا الوقت، وبعده، كان كما يبدو بدافع الحاجة لأن يكون على مثل عليا من الرجولية المستقيمة ذات القرار الصامد الذي سيمحي هذا الإخفاق المقلق، وقد جنى دخلاً سخياً لزوجته العليلة وأشخاص عالة كثيرين، واختبر نفسه في نشاطات مسلية رجولية، وجرب (بلا تربّح في الغالب) في خطط تجارية، وقام بحملة من أجل حقوق المؤلفين، واستعاد الإحساس باحترامه لنفسه من خلال مناصرته ضحايا الظلم، مثل جورج إيدالجي، محامي المنحدرين من أصل أنكلو- هندي الذي اتّهموه خطأً بتشويه الخراف، والأبقار، والخيل. وكان ذلك برنامجاً مرهقاً، لكنه أنشأ حياةً مزودة بالتسليات والمشاغل الكافية لإبقاء أموره المقلقة في وضع يجعله متحفزاً للدفاع.

عن / The Times Literary Supplement

× دينا بيرتش: بروفيسور الأدب الانكليزي بجامعة ليفَربول، ولها العديد من المؤلفات.